

إرشاد الحائى إلى الفتنة الجديدة في الجزائر !

توطئة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وبعد،

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي! ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذا ذبيحتي فبقضائها أحب أن يزحرج عن النار ويدخل الجنة، ففتاته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إماما، فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع. فإن جاء آخر بئزازه فأضربوا عنق الآخر» رواه مسلم.

فقد مرتت الجزائر في العقد الأخير بفتن مدلهمة أزهقت فيها أرواح، واستبيحت فيها أعراس، وكثر فيها الهرج، وكان هذا بسبب الفكر الثوري الخارجي الذي انتشر في كثير من شباب الأمة ففسده عن العلم الدافع والمعمل الصالح وألقى به في دياجير الفتن وبؤر الشر.

وحفظ الله السلفيين بفضلهم ومثله وكريمه، وعصمهم من هذه الفتن بدخل توجيهات أنعمهم الكبار - وعلى رأسهم الشيخ الألباني والشيخ بن باز والشيخ ابن عثيمين رحمهم الله تعالى - وبغضل دعائهم اللامع الذي كان يسير على خطى أولياءه، ويستمر ليدعون بهم، ويرجعون إليهم في الملأ.

فلما انحلت الفتنة وكشف الله عن عباد الغمة برجوع كثير من أولئك الخوارج عن غيهم وضلالهم، خرجت الدعوة السلفية منتصرة بفضل الموقف الرشيد لأتباعها في تلك الفتنة العظيمة، ووافق هذا اتخاذ السلطة إجراءات فيها انفتاح وتوسعة نسبية للدعوة، وذلك لما عرفت حقيقة لبر السلفيين وألهم لا ظمغ لهم في السلطة، وأقيم بر يتون من هذه المناهج الثورية براءة الذنب من دم ابن يعقوب، فصارنا نفرق بينهم وبين الثوريين والحزبيين الذين ينسبون إلى السلفية شكلا ومظهرا وبخالفونها حقيقة ومخبرا.

فاقبل كثير من الشباب على التدين، ووجدوا ضالتهم في المنهج السلفي فأنجفوا إليه زرافات ووحدانا، ورحلوا لتلقي العلم من دعائه مشاة وركبانا، وهذا لما عرفوه من نصيحهم لهم، وبغض نظرهم فيما كانوا يحذرونهم من مغنة التحزب والخروج على الحاكم.

ولكن لما كان الخير الذي يأتي بعد الشر لا يكون خالصا، بل فيه كدر، كما استفاد ذلك أمير المؤمنين في الحديث والفقه: الحافظ ابن حجر العسقلاني من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي قال فيه: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن» الحديث...

يقال - رحمه الله تعالى - في "الفتح" (٣٦/١٣ ط: السلفية): «قوله: (قال: نعم، وفيه دخن) بالمهملة ثم الهجمة المفتوحين، بعدها نون، وهو: الحقد، وقيل: الدغل، وقيل: سدا في القلب، ومعنى الدلالة ستقارب.

يشير إلى أن الخير الذي يجيء بعد الشر لا يكون خيرا خالصا بل فيه كدر.

وقيل: المراد بالدخن: الدخان، ويشير بذلك إلى كدر الحال، وقيل: الدخن: كل أمر مكروه.

وَأَمَّا أَبُو عبيد: فبسر السر بهذا الحديث الحديث الآخر: (لا ترجع قلوب قوم على ما كانت عليه). وأصله أن يكون في قول الدائمة كثرة. فكان المعنى: أن قلوبهم لا يصفو بعضها لبعض. انتهى المقصود من كلامه. ولما كان الأمر بهذه المثابة فإنه سرعان ما ظهرت فتنه القلوب التي أشار إليها أبو عبيد - كما من الغالب - والتي هي أشد من فتنه القتل، لأن فيها فسادا في الدين، بخلاف الأخرى فإن فيها فسادا في النفوس وإتلافا لها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم.

والتي هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة! أما التي لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» حديث حسن لغیره "صحيح الترغيب" (٢٨٨٨).

حقيقة هذه الفتنه:

فما هي هذه الفتنه القائمة في الجزائر حاليا؟ هذه الفتنه فتنه هوجاء تدع الحليم حيران، فتنه لم تدغ بيت وبر ولا منبر إلا دخلته، فتنه جعلت أهل البدع يظهرن الشئامة بالسلفيين ويضحكون منهم ملء أشفاهم، والتبس الحق على كثير من الناس بسببها، بل والنصراف بسببها كثير من الناس عن المنهج السلفي وسقطوا في أحضان الحزبيين والثوريين - المستشرقين والظاهرين - فواغواها بالله!

يمثل هذا ينوب القلب من كمد **** إن كان في القلب إسلام وإيمان

وقود هذه الفتنه وموقودها أقوام خذلاء الأسمان، سفهاء الأحلام، شعاعهم وديارهم: غمز وهمز ولمز في طلبة العلم من الدعاة السلفيين وتلميع وتخمين لأناس جهال مجاهيل ليسوا في الدعوة ولا العلم من قبيل ولا نبيير، غالبهم حزبي أو ثوري قديم أو حديث عهد بجاهلية، برزوا في هذه الفتنه الأخيرة، وحملهم خبأ الرياسة والظهور على الطعن في هؤلاء الدعاة المعروفين قصد استقاطهم حتى يبرزوا ويتصنروا ويغرغروا هم، نساء الله العاقبة!

وقد قيل: إذا كنت خاملا فاطعن في مشهور!

وإن تعجب فاعجب لهؤلاء الذين ماعوا إلى باب جهادي عظيم ألا وهو "الرد على أهل البدع والتخدير من أهل الأهواء"، والذي هو من أصول الإسلام، وبه يحفظ الدين، وكان الإمام الشاطبي يعضه من أبواب الفقه الأكبر كما في "الاعتصام" (١/١٧٤ ط: المعرفة)، جاء هؤلاء الجهلة فاستغلوه أسوأ استغلال لسوء فهم - وأحيانا لسوء قصد - فأنجز من ذلك الشر المستطير، والفن الصماء العمياء، وتفرق المنسبون للمنهج السلفي أيدي سبا، وكثرت المهاترات والنهاتش، وفتح باب الجدل وأطلق باب العمل، وتسلبت الرعاع والسقطة على طلبية العلم والدعاة - الذين كانوا يعلمونهم ويوجهونهم وفق المنهج السلفي - لا يقبلون من مضمينهم ولا يتجاوزون عن مضمينهم، وصاروا يتتبعون زلاتهم ويصدرون الأحكام عليهم - وهم جهلة جائرون - ثم يحذرون منهم كل من دب ودرج، فاشتدت البلية، وعظمت الرزية، فإلهم سلم! ولما كان الباطل لا ينق إلا بشوب من الحق - لأن الباطل الصرّف لا ينطلي على أحد - كما قال الله عز وجل: «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يُوحى بعضهم إلى بغض زُخرف القول غرورا»، فأعداء الرسل من شياطين الإنس والجن يزخرفون باطلهم وتيسونه ثوبا من الحق يمهون به على الناس، لهذا فإن الجهمية اللقاة المعطلة زخرفوا باطلهم بأدعائهم تنزيه الله تعالى من صفات النقص والعيوب، والرافضة الشائمون للصحابية رضوان الله عليهم زخرفوا باطلهم بأدعائهم محبة أهل البيت، والخوارج التكفيريون زخرفوا باطلهم بأدعائهم الحرص على تحكيم الشريعة والتمكين لدين الله، وهكذا...

فليكن هذا منا على بال!

أما هذه الجماعة فقد زخرفوا باطلهم بعبارة "نحن نتبع العلماء!"، ولا يخفى على عاقل أن هذا الكلام حق، وإن اتباع العلماء من أصول منهج أهل السنة والجماعة، إذ أن العلماء هم رأس الفرقة الناجية والطائفة الظاهرة المنصورة، وأهل العلم هم أهل الحديث المستعملون به رواية ودراية، والعاملون به اتباعا ورعاية -

حق بهم من سلك سبيلهم من المتفقيين على طريقتهم — لا المتكلمون ولا المقلد الجامدون، ولا أصحاب أهواء المضلة والبدع المحدثه.

من تراجم البخاري في "صحبه" — وفقه البخاري في تراجمه — ما ذكره في "كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة" (فتح: ٢٩٣/١٣): (باب قول النبي ﷺ « لا تزال طائفة من أممي ظاهرين على الحق » وهم: أهل العلم، وفي (٣١٦/١٣): (باب «لو كنت لك جعتناكم أمة وسطا» وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم، ومن التفسير التي ذكرها الشاطبي في "الاعتصام" لمعنى "الجماعة" أنهم: «أمة العلم المجتهدون»، فاحفظ هذا القيد فإنه مهم!

ولكن ما حقيقة هذه الدعوى التي يدعيها هؤلاء؟

الجواب عن هذا يكون من وجوه:

١. إن اتباع العلماء مبني على شيئين:

لأولهما: معرفة حقيقة أقوالهم، بعد سيرها وجمعها، فقد يقول العالم قولا مجمولا قد فصله في موطن آخر أو يكون قوله هذا إجابة عن سؤال فتكون الإجابة على قدر السؤال.

الثاني: فهم أقوالهم وعقلها عنهم، فينبغي أن يفهم كلام العالم وفقا لمراده هو، لا لمرااد السائل، أو المستفتي، أو السامع، حتى يعمل به على الوجه الصحيح.

وحاملوا لواء هذه الفتنة ليسوا في العبر ولا في النكير، فلا عقل يترتيز به إلى حين معرفة حقيقة قول العالم، ولا علم يمكنهم من فهم أقوال العلماء والعمل بها على الوجه الصحيح، فجئت عليهم فذائمهم وجنيهم.

٢. إن العلماء الذين ينبغي لزومهم هم أئمة العلم المجتهدون، لا عالما في فن ما فحسب، بله طالب علم.

ولكن عند هؤلاء صار لفظ "العلماء" من أنواع العام الذي يراد به الخصوص! فوقعوا في الجنف والإجحاف، ومع هذا قد لا يفهمون قول ذلك العالم — أو طالب العلم — الذي يقصدونه، وقد يكلمونه ولا يُظهرونه إن كان لا يوافق أهواءهم.

٣. أن هذه الدعوى — دعوى اتباع العلماء — تتضمن أمرين:

لأولهما: تزكية أنفسهم بأنهم المتبعون للعلماء دون غيرهم ممن هو أعلم منهم، وأقوم بدين الله منهم عملا وسلوكا، مع المزايدة والتطاول على غيرهم بذلك، علما بأن أغلبهم — كما أسلفنا — همج رعاع، لا علم عندهم ولا دين ولا خلق، ومن وقف على شيء من أحوالهم، وسلوكهم عرف مدى مخالفة الخير الأخير.

ثمن أين نهؤلاء أنهم متبعون للعلماء حقا وصدقا؟ ولأي يكونوا كذلك وحالهم كما أسلفنا؟!

الثاني: اتهام مخالفتهم — وهم طلبة العلم من الدعاة — بأنهم مستقلون بأرائهم دون العلماء، وهذه دعوى عريضة تحتاج إلى بينات، وتهمة تحتاج إلى إثبات.

و الواقع غير ذلك، إذ هؤلاء معروفون باتباعهم للعلماء، ومحبتهم لهم، بل هم الذين كانوا يحشون هؤلاء الشباب على الرجوع إلى أهل العلم في النوازل، والاسترشاد بهم في العضلات، وهم لم يدعوا لأنفسهم العلم، بل هم يحذرون من المغرورين والمتعالمين، فهي إذن مجرد ظنون كاذبة وأهواء مضلة.

وبهذا فإن هؤلاء لا للسلفية نصروا، ولا لأهل البدع كسروا، ولا للعلماء اتبعوا، ولا قدر أنفسهم عرقوا، ولا فضل ذناعاتهم شكروا، فصاروا يخطون خبط عشواء في ليلة ظلماء، وأمسوا في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

بل شوهوا صورة بعض من ينتسبون إليهم من أهل العلم — عند من لا يعرفهم — بسبب تصرفاتهم المشينة، وصندوق من قال: عدو عاقل خير من صديق جاهل!

المخرج من هذه الفتنة:

١- التفريق بين الوسائل والغايات في مجال الدعوة إلى الله تعالى: فالغاية العظمى من الوجود الإنساني هي عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا بطاعة أمره وترك نهييه، ولا يتأتى هذا إلا بالعلم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يؤخذ هذا العلم إلا من ورثة الرسول وهم العلماء الربانيون الذين ساروا على نهج الرُّسل، وإذا لم يتيسر ذلك فعمن ذواتهم ممن سار على نهجهم ولم يزرع يمنة ولا ييسرة.

وسيرا لوجود ادعاء العلم من اهل الاهواء الذين تتكلموا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم واتبعوا به في الطريق، نغتن على المسلم معرفتهم لاجتدائهم، وهذا تأتي الوسيلة إلى ذلك وهي: التحذير من اهل الاهواء، وفي هذا جاء قول ابن سيرين: «إن هذا الأمر دين فانظروا عمن تأخذون دينكم» رواه مسلم في «المقدمة».

فهى إذن ثلاثة أمور:

أ- عبادة الله تعالى

ب- العلم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ت- معرفة من يتلقى منهم هذا العلم.

فالأميران الأوليان من باب الغايات، والأمر الثالث من باب الوسائل، فلا ينبغي حينئذ أن نشغل بالوسيلة وننسى الغاية، أو نظن أن الوسيلة غاية، فنقع في خبط وخطل وغلط.

٢- مراعاة المصالح والمفاسد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ذلك بأن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لتكثير المصالح و تكثيرها، وتقليل المفاسد وتعطيلها، والرؤ على أهل الأهواء والبدع يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو منوط بالمصالح والمفاسد، فينبغي مراعاة ذلك، وهذا بالرجوع إلى أهل العلم، بل إلى خواصهم وجهابذئهم لمعرفة هذا الأمر الجلل، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١٢٧/٢، ط: العقل): «ففطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد، بحيث تعرف ما مراتب المعروف ومراتب المنكر؟ حتى تقدم أهمها عند الإزدحام، فإن هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل».

فإن التمييز بين جنس المعروف و جنس المنكر، أو جنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيرا، فاما مراتب المعروف والمنكر، ومراتب الدليل، بحيث تقدم عند التزام أخرفا المعروفين، ويتكرز الكر المنكرين، ويترجح أقوى الدليلين، فإنه خاصة العلماء بهذا الدين» اهـ.

وعليه فليس كل ما يُعلم يُقال، وليس كل ما يُقال يُنشر، وبالله التوفيق.

٣- إخلاص النية لله في الرد على أهل الأهواء: وهو أحد ركني الرد الذي يجعله صحيحا مقبولا، والركن الثاني هو المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا بأن يحتج في رده بما جاء به الرسول من الهدى والعلم.

فلا يجوز للرد على أهل البدع - سواء كان اقرا أو ذاكر^(*) - أن يكون مقصوده الانتقام لنفسه، وكذلك التحذير منهم لا ينبغي أن يكون لأجل غرض دنيوي كرياسة أو مال أو نحو ذلك، أو يكون الدافع إلى ذلك حسد أو خلاف شخصي، فإن هذا وإن خفي على الناس فإنه لا يخفى على الله تعالى الذي «يُعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور». وفي الجملة ينبغي الحذر من حظوظ النفس في مثل هذه المواطن.

بل الذي يجب على الداعي أن يكون مقصوده الغيرة على دين الله عز وجل من أن يناله تحريف، أو يغتور به خلل، والشفقة على المسلمين من أن يضلوا عن سواء السبيل، وتفصيل هذا الأمر الأخير في النقطة الآتية، والله المستعان.

٤ - استشارة النصح للمسلمين عند التحذير من أهل الأهواء: وهذا أيضا من تمام الإخلاص، لأن التعامل مع الخلق هو في الحقيقة تعامل مع الله تعالى، وفي هذا جاء الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدني. قال: يا رب! كيف أعوذك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدك فلانا مرض فلم تعدني. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب! وكيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقي. قال: يا رب! كيف أسقيتك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقيتك عدي فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

(*) أي: تأفلا عن غيره أو قابلا هو.

فإذا استشعر الإنسان عند التحذير من أهل البدع هذا المعنى - وهو محبة الخير للمسلمين والنصح لهم -
خلص قلبه من الغش والدغل، وسلم من الحقد والحسد، وكان ذلك سببا لهداية الله تعالى له لمعرفة الحق
والثبات عليه، مع الثواب الجزيل، والتشرف بالقيام في مقام الأنبياء ورثتهم من العلماء الربانيين.

٥ - مراعاة ضوابط في الحكم على الأشخاص
أ - الحذر من الظلم والجهل، لأن الحكم على الأشخاص يحتاج إلى علم وعقل - كما قال شيخ الإسلام ابن
تيمية - لاسيما وأن أصل الإنسان الظلم والجهل كما قال تعالى: ﴿ وَخَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.
ب - ضبط الأقوال بميزان الشرع للسلامة من هاتين الخصلتين المذمومتين قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ، وقال أيضا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَالْمِيزَانَ ﴾.

فالكتاب دواء للجهل، والميزان دواء للظلم.

ج - لزوم عرز العلماء الكبار السابقين الذين جمعوا بين العلم والحلم، قال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ
كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

د - الحذر من اتباع الهوى والظن، قال تعالى: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى النَّفْسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ
الْهُدَى ﴾ ، وقال أيضا: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

ر - التحلي بالتؤدة والتريث، لاسيما زمن الفن، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التأني من الله
والعجلة من الشيطان» [هـ] «الصحيحة» (١٧٩٥)، وقال أيضا: «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل
الآخرة» [د] «صحيح الترغيب» (٣٣٥٦)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ستكون هناك أمور مشتهيات
فعليكم بالتؤدة، فلا تكون تابعاً في الخير خيراً لك من أن تكون رأساً في الشر» رواه ابن بطّة في «الإبانة».
هذا وإن أصبت فمن الله تعالى وحده لا شريك له، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان والله ورسوله
منه بريئان.

وأقول كما قال الشاعر:

استغفر الله من قولٍ بلا عمل *** لقد نسبتهنَّ به نسلاً لذي عقم
أمرئك الخير لكن ما اثمرت به *** و ما استقمته، فما قلتي لك استقم؟!

والله الموفق لا رب سواه
والحمد لله رب العالمين.